آفاق دراسة المخطوط بين الضّيق والسّعة: المخطوط الإباضي أنموذجا في المكتبات الخاصة في معاقل الإباضيّة بالجزائر وتونس وليبيا.

د.سناء الباروني

جامعة مندوبة تونس

إنّ مجادلة السّائد في التّعامل مع المخطوط[1] بالمغرب الإباضي موقف نقديّ يخترق المألوف، وأفق منهجي ومعرفي يتخطّى المتداول بحثا عن الجديد وتوقا للبديل في تحيين المعرفة بإرث مادي وفكري ضاربة جذوره في القدم من أجل ثقافة حيّة متطوّرة.

ونوجّه عنايتنا في هذا العمل إلى الفحص والاستقراء ثمّ النّقد للمخزون الإباضي في شكله المخطوط من خلال انموذجه بالجزائر وتونس وليبيا سعيا لطرح آليّات نظر جديدة كإضافات ملائمة ومطلوبة للتّعامل مع هذا النّوع من المؤلّفات بما هي فضاء لا يزال بكرا في العديد من جوانبه.

وإذا كان المخطوط الإباضي المغاربي بوادي ميزاب الجزائري وجزيرة جربة التونسيّة وجبل نفوسة الليبي هو وعاء لمضمون فكري وحضاري مشترك له مميّزاته وخصوصيّاته، فإنّه في شكله موضوع معرفة أخرى لها قوانينها ومميّزاتها وخصوصيّاتها أيضا. ذلك أنّ سيرورة حياة هذا المخطوط ليست سوى انعكاس لسيرورة فكر ظهرت أسس مدرسته منذ النّصف الثّاني من القرن الأوّل للهجرة في خضمّ أحداث الفتنة الكبرى وما عقبها من وقائع كانت وراء ظهور الفرق الإسلاميّة[2]. والإباضيّة واحدة من بين تلك الفرق التي أدلت بدلوها عقائديّا وسياسيّا وفكريّا على وجه الخصوص منذ ذلك الزّمن، وقد صان أتباعها الّذين انحدروا من صلب المحكّمة[3] أصول فكرهم ومبادئهم ونشر أئمّتهم[4] تعاليم الدّين عبر حملة العلم الذين جابوا الأمصار مشرقا ومغربا لنشر أصول مذهبهم عقيدة وفقها.

---

[1]–المخطوط هو كلّ مصنّف أو تاليف قدم كتبه مؤلّفه بخط يده أو عن طريق غيره كأحد تلاميذه أو النّساخ المعاصرين له أو الّذين جاؤوا من بعده. والمخطوط العربي هو الكتاب المخطوط بخط عربي سواء أكان في شكل لفائق أو في شكل صحف ضم بعضها إلى بعض على هيئة دفاتر أو كراريس. ر، عبد الستّار الحلوجي: المخطوط العربي.مكتبة الصّباح، الرياض، الطبعة الثانية 1989، ص 15.

[2]–عن الجذور التاريخية للإباضية ر، سناء الباروني: البعد الحضاري لنماذج من الفقه الإباضي: دار الجويني للنّشر تونس ط2 2011، ص ص: 6- 18

[3]– " السّبب الذي له سمّوا محكّمة إنكارهم الحكمين وقولهم لا حكم إلاّ لله " الأشعري: مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين. ج1/ ص 207.

[4]– من أئمّة الإباضيّة المؤسّسين لدعائم المذهب: جابر بن زيد (21-93ه/ 642-712م)وعبد الله بن إباض (ت86ه/ 705م) وأبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة(145ه/762م). وعبد الله بن وهب الراسبي (ت38ه/658م)

وقد كانت المخطوطات الإباضيّة ولا زالت السجلّ الحافظ لتلك الأصول وأمسكت بناصية انتظام كلّ النّتاجات الفكريّة ونقلت نواميس الحراك التّاريخي والسياسي والاجتماعي والعلمي والمعرفي الذي عاشه أصحابها عبر الأزمنة .

ومنطلق معالجتنا ورؤيتنا لآفاق دراسة المخطوط الإباضي بين الضّيق والسّعة هو حضاري، وهو ممّا نعتبره محسوما في تحديد قيمة الإرث الإباضي المخطوط، ولكنّه لامناص من مجرّد التذكير ببعض الحقائق التّاريخيّة التي من خلالها نقف على الخصائص الفارقة في تاريخ المعرفة والفكر الإباضيّين والذي نلج إليه من خلال الإرث المخطوط باعتباره السّياج الحاضن لمقوّمات المذهب الإباضي وفي ذات الوقت هو مفتاحه شكلا ومضمونا،، وباعتباره كذلك سجلاّ حافظ الأصول فكريّة أهمّ سماتها أنّها ذات أبعاد حضاريّة واسعة ملموسة في الكثير من جوانبها على أرض الواقع [1]، وهو ما من شأنه أن يجعل هذه الأصول في أمسّ الحاجة إلى الاستقراءات وتفجير مكنوناتها التي حافظ عليها أصحابها عبر الأجيال فكريّا وسلوكيّا، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ باستدعاء المصنّفات المخطوطة استدعاءً سببيّا بماهي الدّال على مدلولات الفكر الإباضي وبما هي أيضا الوجه الماديّ هذا لفكر في خصوصيّاته ليصبح البحث في إشكالية المخطوط قائما على فكرة التعاقد الضمني بين حيثيات الواقع الذي يأوي هذا الموروث وهو الأفق الضيّق الذي يكشف لنا الحراك القائم إزاء المتون المخطوطة وبين ماهو متاح نظريّا وإجرائيّا وهو الأفق الواسع الذي يمكن أن تدركه ديناميكية التفاعل مع تلك المتون.

ولعلّ من بديع خواصّ جنس المخطوطات عموما والإباضية خصوصا أنّها تمثّل في الآن ذاته مادّة فحص وأداة للدّرس فيه ومنه وعليه.وهذا الصّنف من المؤلّفات لا يمنع من حيث المبدإ والإجراء أن تصطنع من خلال ظروف بيئته مناهج نظر جديدة وأدوات قراءة حديثة توجّه إلى ابتكار أصناف لمباحث علمية وثقافية تضيف للسّائد المألوف وتتوسّل بالجديد العلمي في الحفاظ على الجنس من المؤلّفات والنّصوص.

و قدتجلّت أولى صور هذا الحفاظ في الأوساط الإباضيّة بالمعاقل التي حدّدنا [2] في وجهة منه مادّية، من خلال الحفاظ على الإطار المرجعي لتاريخهم وفكرهم.فكانت المخطوطات على اختلاف مواصفاتها ومواضيعها وأزمنتها وحتّى أماكن تواجدها عيارا ثابتا لا حدود لمسؤوليّته في صيانة الموروث الفكري وفي بناء المعرفة عن الفكر الإباضيالتي لا تفتأ أن تتراكم من جيل إلى جيل بأقلام إباضيّة وأخرى غير إباضيّة. ويتّسع بنا المقال لو أردنا عرض مختلف المخطوطات الإباضيّة التي اكتنزت أصول الفكر الإباضي،ولكنّ المقام يضيق بنا ولامناص لأيّ مسترشد أو باحث في الفكر الإباضي من إطلالة على بعض الفهارس يمكن أن تهديه للتعرّف على أهمّها دون ادّعاء حصرها أو الإحاطة بها كلّها [3]، تثبت غزارة الموروث الفكري المخطوط بالمغرب الإباضي، وتثبت

---

[1] –ر، دائرة المعارف الإسلاميّة: الطبعة العربيّة: فصل الخوارج: م 8/ ص 474.

[2]– وادي مزاب بالجزائر، جزيرة جربة بتونس وجبل نفوسة بليبيا.

[3]–ر مثلا: فهرس المكتبة البارونيّة بجربة على الموقعالالكتروني : Al-Barouni.com. ر أيضا مخطوطات جبل نفوسة على الموقع www.taddart.org

إلى جانب ذلك أنّ المخطوط الإباضي باعتباره جزءا لا يتجزّأ من المخطوطات العربية، وبوصفه وعاءً ماديّامن ورقٍ ومدادٍ ونسخ وتجليدٍ، وممّا عدا النّص من بيانات توثيقية أوما يُعرف بخوارج النّص، هو مجال بحث علمي لايزال بحاجة إلى الكثير من الجهود.

ولعلّه يكون من نافل القول التّذكير بشراكة العلاقات التّاريخيّة والفكريّة بين إباضيّة جنوب الجزائر وهم أهل وادي مزاب وبين إباضية جبل نفوسة بليبيا وبين إباضية تونس وهم أهل كلّ الجنوب التونسي قديما وأهل جزيرة جربة إلى اليوم. فكانت متون المصنّفات المخطوطة في هذه المعاقل الجغرافيّة الثّلاثة وحتّى في بعض أشكالها مثل الرّسائل[1] والرّدود[2] مرآة عاكسة لبصمات تلك الشّراكة وذلك الامتداد المشترك تاريخيّا وسياسيّا وفكريّا وحضاريّا، وفي الآن نفسه هي شكل من المصنّفات تقدّم للمستقرئ والمحقّق فيها والنّاقد حصيلة من الإبداعات والجهود العقليّة وصورا من البنيات الذهنيّة داخل لغة عربيّة فصحى تفاعل أصحابها من شيوخ الإباضيّة وأئمّتهم وعلمائهم على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم مع مقتضيات عصورهم ووحاجيات المحيط الذي عاشوا فيه ونقائص المجتمع الذي توجّهوا إليه بالخطاب المدوّن وحتّى مع مخالفيهم من أصحاب الاتجاهات الفكريّة الأخرى وأئمّة المذاهب الإسلاميّة المختلفة .ولعلّه من المنهج أن نقف على أهمّ مميّزات هذا الإرث المخطوط في بنيته الدّاخليّة قبل أن نوجّه عنايتنا إلى رصد السّائد والمطلوب في الاشتغال به،ووفهم الأسباب المقنعة وغير المقنعة الكامنة وراء موقعه بين الضّيق والسّعة كمجال درس علمي.

ولعلّ أهمّ ما يميّز التراث المغاربي المخطوط في نسبته الإباضيّة أمران اثنان:

أوّلهما أنّه دار في مجمله حول صنفين كبيرين من العلوم:

1- علم مباحث الدّين من عقيدة وفقه وأصول فقه وما يتّصل بهذه العلوم من العلوم الوسائل كاللغة والتفسير والأدب منظومه ومنثوره والمنطق والفلسفة...إلخ

2- علم التّأريخ والسّير والاهتمام بتدوين الطّبقات وذلك صونا لسير الأئمة من مؤسّسي المذهب وبناة المدرسة الإباضية الأوائل إلى من تلاهم عبر الأزمنة من رجال العلم سيّما وأنّ الإباضيّة قاسوا من الإقصاء والتهميش وحتّى الإبادة عبر تموّجات أنظمة الحكم ببلاد المغرب العربي.

أمّا من حيث شكلها العامّ فيمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع كبرى من الأجناس الكتابيّة:

---

[1]- الرّسائل: هي ماكان يبعثه شيوخ الإباضية من جربة ومزاب ونفوسة فيما بينهم من مراسلات تحتوي على أسئلة عقديّة أو طلبا لفتوى فقهيّة... وقد ذكر هذه الرّسائل المبرّد في كتابه: الكامل في اللغة والأدب. مكتبة المعارف. بيروت. ج2/ ص ص 176- 180.

[2]- الرّدود: تحتوي على جوابات المشائخ والعلماء في خصوص الأسئلة والاستفتاءات المطروحة عليهم أو في الردّ على رسائل من غير الإباضية. ونذكر منها على سبيل المثال: رسالة الردّ الناكثة وأحمد بن الحسين لعمروس بن فتح (ق2ه/ 8م) أو رسالة الردّ على المخالفين لعبد الله بن أبي عثمان سعيد الصدغياني (ق 7ه/ 13م). هذه الردود موجودة بالمكتبة البارونية بجربة ضمن مجموع مخ

– **المناظرات والرّدود**:وهي غالبا ماكانت في الدّفاع عن آراء المذهب الإباضي ومقالاته ردّا على التهجّمات والطّعون التي طالت الرؤى العقديّة كجوابات الإمام جابر بن زيد[1] وكمناظرات عبد الله بن إباض مع الخوارج وغيرها.

– **الدّواوين والموسوعات**[2]: وهي مرحلة البدايات في تأصيل قواعد المذهب الفقهية وكان التصنيف فيها مجهودا جماعيّا تعمّق من خلاله اشتغال أئمة الإباضية بمباحث الدّين تأصيلا وتعليلا.

–**الكتب والمصنّفات**: وهي مرحلة النّضج في الفكر الإباضي.وهنا كان التصنيف الفردي حيث ظهر في كلّ عصر من كان يجمع بين التصنيف والتدريس أو من يطرح ما أصّله السابقون من أئمة المذهب الأوائل طرحا لا يخلو من جدّة وتوجّه هؤلاء في كتاباتهم إلى تنضيد كلّ مراحل التفكير العقدي والاجتهاد الفقهي منذ ظهور الإباضية فرقة من الفرق الإسلامية وكانوا يخطّون الأسفار وينسخون أو ينسخ عنهم قرّاؤهم الذين كانوا يعون وعيا صارما بقيمة التّدوين نهجا أساسيا للحفاظ على الهويّة والتوجّهات الفكرية والحضارية بحيث انبرت المخطوطات المتزايدة في كمّها تبين أنّ العلم والمعرفة سبيلا سلكته عقول وأقلام مبدعيها لتعزيز وجودهم الحضاري وأنّ المخطوطات الحاوية لتلك العقول والأقلام قد تجمع إلى جانب وظيفتها الإخباريّة عن واقع الإباضيّة أداء الوظيفة الإبداعيّة.

–**الشروح والحواشي والتعليقات**[3]: هي مرحلةبلغت ذروة النّضج والغزارة في المادّة الفكريّة الإباضيّة، وانساق المصنّفون يشرحون المتون ويحشّون عليها ويعلّقون، بل بلغ بهم الترّف الفكري كما بلغ بغيرهم إلى أن اختصروا الشّروح وشرحوا المختصرات.

–**الرّسائل والرّدود والجوابات**[4]: وهي كثيرة ومختلفة المواضيع وعادة ما توفّر بين أيدي المتقبّل نصوصا إباضيّة متنوّعة كأدلّة إقناع أوبراهين يحاجج بها صاحب الرسالة أو الردّ الطّرف المتقبّل.

كما يمكن أن نميّز من حيث مقاصد المصنّفات المخطوطة بين ثلاثة أنواع كبرى: المصنفات الاجتهادية التأصيلية[5] والمصنفات التعليميّة [1] ثمّ المصنّفات الدّفاعيّة.[2]

---

[1]– مخ بالمكتبة البارونيّة الحشّان جربة ضمن مجموع من ص ص 63 –80. بكلّ ص 24 سطرا. المقاس: 12/17 صم.

[2]– أهمّها ديوان العزّابة في القرن 4ه/10م الذي ألّفه من سبعة الفقهاء بغار مجماج بجربة. ر، أحمد الشمّاخي: سير المشائخ.ط حجريّة القاهرة: 1301/ 1883 ص ص 400– 402: ر، أيضا فرحات الجعبيري: نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة بجربة: المعهد القومي للآثار والفنون. المطبعة التاريخيّة 1975. ص ص 186 –170.

[3]– هي كثيرة نذكر من أشهر أصحابها محمّد بن عمر بن أبي ستّة (ق11ه/ 17م) المشهور بالمحشّي لكثرة حواشيه.

[4]– نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: رسالة في مبادئ عزّابة غرداية: مخ بمكتبة با عمارة بقرية مليكة بغرداية 8 ص. دت. وقد أشار إليها لويكي في دائرة المعارف الإسلامية فصل حلقة: الطبعة الجديدة ص 100. ردّ أحمد الشمّاخي (928ه/1522) على تبغورين بن عيسى الملشوطي(ق6ه/12م): مخ بالمكتبة البارونيّة 52 ص بكلّ صفحة 24 سطرا. المقاس: 12/17.5 صم. د.ت.

[5]– ديوان الأشياخ مرجع سابق ص 6.

غير أنّه حريّ بنا في ضوء الوعي العميق بجسور التواصل بين الموروث الفكري الإباضي الليبي التونسي الجزائري أن نعرض لنقاط عريضة ثابتة وأخرى متحوّلة في المخطوطات الحاوية لهذا الإرث الفكري المشترك انطلاقا من تحديدنا لأصناف المراس القائمة فيها من قبل الباحثين قبل أن نطرح آفاقا مطلوبة تجاهها وأوّلها هو:

ـ أنّ المخطوط الإباضي مرآة محيطه الذي ظهر فيه والذي وجد فيه: ذلك أنّ كلّ مخطوط يمكن أن يكون قد ظهر في وسط جغرافي ولكنّه حفظ في مكان مغاير، فهو عبارة عن بطاقة تعريف فيها جوانب جليّة وأخرى مشفّرة عن الوسط الذي وجد فيه، والباحث ههنا المهتمّ بدراسة أي مخطوط كان، مطالب بتوثيق الجليّ وإجلاء الخفيّ عن المخطوط الذي بين يديه فيفحص ظروف ظهوره ويستقرئ ظروف المحيط الذي حافظ عليه عهودا طويلة وهذا ما يتساوق مع مقاصد عمله باعتبار أنّ بحثه يروم إنتاج المعرفة على نصّ قدّم في شكله ومحتواه مميّز في صورته الماديّة أكثر أحيانا من تميّزه في صورته المضمونيّة.

وتكون أولى منطلقات العمل حينئذ هو الاهتمام بهذا الصّنف من المؤلّفات في نسيجها الخارجي.وهنا تكون الدّراسة علميّة بحتة تعنى بمكان وجود المخطوط وبوصف سبل الحصول عليه ثمّ تكون العناية بالمواصفات من مقاس ونوع خطّ وعدد صفحات وعدد أسطر وعدد الأوراق الناقصة وعدد المتآكل منها وذكر الناسخ ومكان النسخ وتاريخه وما تصدّر به المخطوط وما اختتم به من كلام صاحبه أو ناسخه....، بيد أنّ افتقار العديد من المخطوطات لأهمّ البيانات المؤطّرة لحركة ظهوره ونسخه وبيان تاريخه ومكانه ما يدعو اليوم إلى توظيف علم النقد الجيني للمخطوط[3] وهو العلم الذي يهتمّ بتحليل سيرورة المخطوط منذ ظهوره فكرة إلى غاية أن أصبح واقعا مخطوطا وذلك باستثمار مختلف نسخ المخطوط الواحد المكتوبة بخط المؤلف.و لعلّ توظيف هذا النّقد الجيني هو ما سيسعف نقائص العديد من المخطوطات الإباضيّة للإحاطة بكلّ أسباب النّشأة والكشف عن ظروفها وهو ما سيضيف لما هو كائن في المخطوط بالفعل كلّ ما هو صائر فيه بالقوّة.وهذا ما سيثري في اعتقادنا خفايا دقيقة عن الأصول الإباضيّة التي اضطربت في تدوينها كتب الملل والنّحل أو التي بقيت بحاجة لمزيد الدّعم والإقناع في كتابات الباحثين المطّلعين على المصادر الإباضيّة المخطوطة والذين أعوزتهم أحيانا ضبابيّة بعض البيانات فيها.

ـ أنّ المخطوط الإباضي عالم مخصوص في شكله ومضمونه باعتبار أنّ أصحاب الفكر القائم فيه كانوا أقليّة كابدت الكثير من الإحن والفتن ممّا يجعل فكرهم وهو قائم إلى يوم الناس هذا ذا قوّة في شعائره وشرائعه،

[1]ـ على سبيل المثال أبا عمرو عثمان المارغني السّوفي (ق6ه/12م) كتاب السّؤالات: مخ بالمكتبة البارونيّة. خط مغربي واضح: 323 ص.18 سطرا بكلّ صفحة. (16.5/ 13صم) دون ذكر الناسخ ولا تاريخ النّسخ.

[2]هي كثيرة نذكر منها رسالة أبي عبد الله الصّدغياني (ق7ه/ 13م) لأهل وارجلان: مخ بالمكتبة البارونيّة. 22ص. 25 سطرا بكلّ صفحة. المقاس 16/ 12 صم تاريخ النسخ: 1226/ 1811.

[3]ـعلم النقد الجيني: هو علم يهتمّ بتحليل سيرورة المخطوط منذ ظهوره فكرة إلى غاية أن أصبح واقعا مخطوطا وذلك باستثمار مختلف نسخ المخطوط الواحد المكتوبة بخط المؤلف.

ويجعل بذلك الوعاء الحاوي لمقوّمات هذا الفكر وهي المخطوطات النادرة يزداد كلّما تقدّم الزّمن قيمة ماديّة وروحيّة.ولعلّ ندرة بعض هذه المخطوطات قد يجعل حجم المسؤولية أثقل في كيفية التعامل معها.

ـ أنّ المخطوط الإباضي بالجزائر وتونس وليبيا هو جزء من كلّ إسلامي حضاري، وفي ضوء هذه العلاقة الاحتوائيّة، يكون عزل هذه المخطوطات أو استثناؤها من الكتابات والدّراسات الشّاملة لفكر الفرق والمذاهب سببا في جعل جزء من الإرث الإسلامي مبتورا.

ـ أنّ المخطوط الإباضي هو عصارة أزمنة متفاعلة: زمن أوّل عاصر هذا المخطوط في نشأته وظهوره تلته أزمان حافظت فيها أجيال الإباضية على إرث استوفى الديناميكية الفكرية والإبداعية التي عرفها الفرقة الإباضية منذ ظهورها لكنّها تظلّ دائما وأبدا لمتابعة مسؤولة لصيانة تلك الدّيناميكيّة من الضّياع والتّلف أو من الحجب والنّسيان.

ـأنّ المخطوط الإباضي يختلف شكل تواجده بين معاقله الإباضيّة فالمكتبة الخاصّة بجربة مثلا هي ما يقابل الملكية الخاصّة للمخطوطات بوادي مزاب أي أنّ المخطوط قد يكون في حوزة عائلة معيّنة تخصّص لها غرفة يمكن أن تزار بإذن قيّم من تلك العائلة ولا يمكن لأي كان نيل المخطوط أو استنساخه إلا بصعوبة كبرى وهو حال المكتبة البارونيّة ومكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة.بينما يتّسع مفهوم المكتبة الخاصة بمزاب ليكون المكان المخصّص لاستقبال القرّاء أو الباحثين وتمكينهم مباشرة أو بوساطة خفيفة من استنساخ المخطوط كمكتبة الشيخ اطفيّش ومكتبة عمّي سعيد الجربي بغرداية وغيرها .أمّا عن الملكية الخاصة للمخطوطات بوادي مزاب فهي قائمة عند المزابيين بكثرة [1] تتوارث العائلات المخطوطات أبا عن جدّ وقد تبقى هذه المتون رهينة البيوت ولا ترى مجالا للاستثمار والإفادة إلاّ من أهلها إذا كانوا من أهل العلم.ولا مناص هنا من حملات توعويّة لصيانة هذه المخطوطات المتقادمة سنة بعد سنة من التّلف أو تلاشي الأوراق البالية فيها وذلك بتحسيس أصحابها بضرورة جعلها محلّ العناية اللازمة لمثل هذا الصنف من المؤلفات دون أن ينتزع حقّ ملكيّتها منهم.

أمّا الحال بجبل نفوسة بليبيا فلا هو من هذا ولا هو من ذاك في جربة ووادي مزاب، باعتبار أنّ المخطوطات الإباضية عند أهل الجبل ما فتئ أصحابها يجمعونها اليوم لإخراج ما بقي منها إلى النّور بعد تغييب كامل عن الأنظار بسبب المضايقات السياسية التالدة التي أودت بإتلاف الكثير من المخطوطات أو حجزها ولكنّ نصيبا منها كتبت له السّلامة في صلب الأقدار التي تحفظ الإنسان وغير الإنسان.

ولكن إذا أردنا أن نحدّد إشكاليّة المصنّفات المخطوطة في هذه الأوساط وأزمة التّعامل معها ماديّا ومعرفيّا، كان لزاما من الوجهة المنهجيّة أن ننظر بمجهر الزّمن المكبّر لما هو مسكوت عنه أو ماهو مجهول لدى الكثير من النّاس، ذلك أنّه بغير هذا المجهر يمكن أن تضيع أزمة المخطوط الإباضي في غمار النّظرة اللاّموضوعيّة

---

[1]ـ ر، الملحق آخر العمل ص: 19

وغير الشفّافة، أو تقع أسيرة ضيق النّظر في الكشف عن وسط فكري ثري بتراثه ومخزونه في شكله المخطوط، أو يقف الكلام عند مستوى سرد النّقائص المعروفة وغضّ النّظر عن النّفاذ إلى لبّ المشاكل التي عاشها ويعيشها الإرث الإباضي المخطوط.

ومجهرنا هذا سيكشف لنا بمرآته التاريخيّة المقارنيّة والنقديّة أنّ أزمة المخطوط الإباضي حكمتها حُجُبٌ من صنفين:

1- حُجُب الشّروط السّياسية المؤطّرة لوضع فكري وحركية ثقافيّة عاشت في ظلّها الأوساط الإباضية بليبيا وتونس.فإباضيّة جبل نفوسة حجبوا المخطوطات وغيّبوها في ظلّ نظامهم السياسي السّابق الذي كان قامعا بشدّة للتراث الفكري الإباضي وذلك حرصا منهم على بقائها وخوفا من أن يتلف ما بقي لهم من إرث أجدادهم وفكر علمائهم وتحبيرات مشائخهم.

أمّا في تونس فقد كان الوضع عند الإباضية فيها أقلّ سوءا من إخوانهم بالجبل، لكنّ المراقبة كانت بدورها محكمة وشديدة على كلّ من يزور مكتبة إباضيّة خاصّة،حتّى أحجم أصحاب تلك المكتبات – وهي قليلة مقارنة بمثيلاتها في الجزائر – في مدّ يد العون للباحثين وطلبة العلم.ولذلك بقيت المخطوطات حبيسة الرّفوف عهودا طويلة باستثناء بعض البحوث الأكاديمية التي استغلّت جزءا يسيرا من المخطوط القيّم والنّادر الموجود فيها سيّما في المكتبة البارونيّة بقرية الحشّان بجربة.

2- حُجُب الإمكانيات الماديّة والتي تشترك فيها معاقل الإباضية بالجزائر وتونس وليبيا.

والمقصود بالإمكانيات الماديّة هو عدم توفّر أرضيّة مناسبة للوصول إلى المخزون الإباضي المخطوط واستثماره إجرائيّا،فلا مكتبات عامة تحتويه،ولا الخاصّة قادرة على استقبال الباحثين وتمكينهم من الاطّلاع والاستفادة.فبقاؤه رهين الرّفوف والخزائن الخاصّة قد أضفى ضلالا من الجهل وغيوما من الضبابيّة حول حقيقة هذه المخزون وحول قيمته التّاريخية والفكريّة في غير الأوساط الإباضيّة.و بقي في الأوساط الإباضية كمتحف لآثار السّلف وإبداعات الأجداد نادرا ما يفتح، وكموروث تتناقله الأجيال دون وعي بما يكتنزه من غزارة مادّة وزخم فكر. ولامناص أنّ امتداد هذا الحال من الجمود الذي يعيشه المخطوط الإباضي سيغمس مضمونه في قطيعة معرفية قد يصعب بعد ذلك رتقها لو تواصلت وامتدّت.

وفي ضوء هذا المنظور الحضاري الذي على اقتضابه لا مناص منه في هذا العمل، وفي ضوء ما كشفه لنا من القيمة الاستراتيجية التي يحظى بها المخطوط في جماع المخزون الفكري الإباضي، نلج إلى النّقد الموجّه **لطالب المخطوط الإباضي وللمطلوب منه:**

تجيئ هذه الانتقادات من منطلق واقع معيش في الأوساط الإباضية الحاضنة لمخزون ثريّ من المخطوطات القديمة والنادرة. والمقصود بطالب المخطوط هو كلّ باحث يروم الحصول على مصنّف مخطوط إما لاعتماده

مادّة بحث أو للاستشهاد به أو حتّى لمجرّد مطالعته والاطّلاع عليه أمّا المطلوب منه فهو كلّ فرد أو مجموعة امتلكت مكتبة خاصة كالمكتبة البارونيّة بجربة أو الكتبات الخاصة بجبل نفوسة بالقطر الليبي [1]

وننتهي في آخر مراحل عملنا هذا إلى المنظور الاستشرافي المأمول في التعامل مع المخطوط بالمغرب الإباضي، وهو تعامل يفرض جدلا مخصوصا بين نقائص الفكر الإباضي المخطوط وبين الوضع المعرفي والعلمي الجديد الذي غدا عليه الإباضيّة اليوم وقد أصبح يفرض طرائق مجدّدة ومضيفة في استثمار هذا الإرث المخطوط تلتقي مع ما يتمّ في ساحة المخطوطات العربية الأخرى.

ونلخّص هذا المنظور الاستشرافي في العنوان التّالي:

المخطوط في المغرب الإباضي: من أسئلة الانحسار إلى مغامرة الانفتاح الفاعل والمضيف.

فالمخطوط الإباضي يجيئ ههنا أرضيّة للتواصل المغاربي وحافزا معرفيّا للإبداع الفكري والأدبي يحمل على الاستلذاذ المعرفي المضيف، ويثير فضول غير العارفين بحقيقة الفكر الإباضي وأصوله، ويغذّي العارفين روحيّا وثقافيّا.

وهذا العنوان إنّما وضعناه انطلاقا من استقلاليّة المخطوط الإباضي وإمكانات متونه واغتناء فحوى نصوصه فبالإضافة إلى التّالد بما يخدم قضايا الواقع ويثري المنظومة الفكرية الإباضية كجزء لا يتجزّأ من منظومة الفكر والحضارة العربيّة الإسلاميّة.

ونقترح صياغة لعدد من الأعمال والبرامج الإجرائية الضروريّة للتعامل مع المخطوطات الإباضية بمنهج هو رهين التجديد العلمي والانتقال من سطح البناء العلوي للمخطوط إلى عمقه وذلك بوضع مفاتيح جديدة تيسّر كلّ إجحاف من الباحثين لخوض مغامرة البحث في هذا المخزون المتواري خلف الأقنعة النسبيّة للنحل والمذاهب والفرق.

أوّلا لابدّ من إيجاد نوعيّة من الفهارس الجديدة تضيف إلى جانب بيان مواصفات المخطوط العناصر التالية:

أوّلا: وضع مقدّمة موجزة لكلّ مخطوط: وتتلخّص وظيفة المقدّمة فيما يلي:

في مساعدة الباحث وتهيئته لدراسة محتوى المخطوط وذلك بإبراز أهمّيّة موضوعه وعلاقته المباشرة أو غير المباشرة بمستجدّات الواقع الثقافي والبحث العلمي مع تحديد موقع الموضوع الذي يحتويه ذلك المخطوط بين المخطوطات السابقة واللاحقة له في نفس الموضوع طبعا مع إمكانيّة اقتراح المدّة المناسبة لدراسة كلّ مخطوط بما يعين الباحث على حسن التخطيط لإنماء عمله وتقديمه.

---

[1]- انظر الملحق في آخر العمل ص 19-20.

ثانيا: تحديد نطاق الدّرس في كلّ مخطوط: ويحدّد نطاق هذا الدّرس المتاح حول المخطوط في ضوء محتواه ونوعه (عقيدة – فقه – أصول فقه – أدب- سير – فكر سياسي....) أي بيان الدراسات التي أجريت حول هذا المخطوط واقتراح جدول من المواضيع التي يمكن إجراؤها عليه ومن الممكن أن يحتوي تحديد هذا الجدول جملة من الأسئلة التي لا يتاح الإجابة عنها إلاّ بدراسات وبحوث جديدة حول هذه المخطوطات.

ثالثا: بياناًولويّة بعض المخطوطات دون غيرها للفحص والنّظر والاعتناء وفق حاجات الساحة الفكرية والمعرفية للمجتمع ووفق حتّى حجم الدّراسات حولها.

رابعا: تحديد أولويات الاشتغال على كل صنف من المخطوطات فهنالك مخطوط هو في حاجة إلى تحقيق وهنالك ما هو بحاجة إلى عمل مقارني أو إلى عمل نقدي أو إلى التعريف به أو إلى إنتاج المعرفة عليه إلى غير ذلك من آفاق الدّرس الأكاديمي والدّرس العلمي بصفة عامة

خامسا: توفير الإمكانيات الماديّة والمعرفيّة لتشجيع طلبة العلم على مراس المخطوطات سيّما وأنّ جلّ الطلبة اليوم يفضّلون الاشتغال على المطبوع لصعوبة التعامل مع المخطوط وما يشترطه من ومن أهمّ ما يمكن إجراؤه لتذليل هذه المخاوف من الاهتمام بالمخطوط ولقليل نسبة الإحجام عن دراسته هو تكوين فرق بحث يشرف عليها مختصّ في تحقيق المخطوطات

يهيّئ فيها الطلبة والباحثين الجدد لاكتساب الخبرة المعرفيّة في الاهتمام بالمخطوط مبحثا علميا وفكرياً، فضلا عن دور هذه الورشات في كونهاسبيلا لربح الوقت واقتصاد الجهود غير الممنهجة والمؤطّرة لترتقي بالباحث إلى مستويات الإتقان في العمل التحقيقي أو غيره وتنمّي لديه القدرة على مزيد الإبداع في صلب المخزون المخطوط.

ويحقّ لنا أن نختم الحديث عن آفاق دراسة المخطوط الإباضي من الجزائر مرورا بتونس إلى ليبيا لنفتحه، فبناءً على ما رأينا في صلب هذا العمل نقف في الخاتمة على أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها وجماعها أنّ المخزون الإباضي المخطوط لا يزال مجال مساءلات بكر شكلا ومضمونا ولا سبيل لاستكناه المضمون دون الوعي بقيمة الشّكل الذي يجعلنا نتساءل اليوم بمزيد من الوعي والمسؤولية ما هي حدود المراس الجديد لهذا الشكل المخطوط في ظلّ تطوّر مناهج البحث من ناحية وفي ظلّ ضعف الإمكانات المادية من ناحية أخرى ؟ وإلى أيّ مدى سيبقى المخطوط الإباضي متأرجحا بين آفاق الضيق والسّعة وكيف سينعكس ذلك على مردود هذا المخزون وموقعه في الثقافة العربية الإسلامية ؟

ولكنّ هذا العمل وهو يروم في الحقيقة لأن يكون الفاتحة التي بها نستشرف مسالك جديدة في مراس المخطوط الإباضي والتفاعل معه معرفيّا وماديّا فهو يوجّه دعوة ابتكار غير المألوف في فهرسة المخطوطات وفي تحقيق شكله وهيئته، فإذا استقامت مناهج جديدة في إثبات مواصفات دقيقة لكل مخطوط إباضي سيتحقّق إنتاج معرفة على الجوهر يفيد الدّرس التأريخي والتحقيقي والنّقدي والمقارني

واللغوي واللساني.إذ إنّ تعميق كلّ ما يخصّ الشّكل والوعاء الخارجي للنصّ سيخلق آفاق درس جديدة تثري ما كتب عن الإباضية وتولّد ممّا حبّره علماؤهم أجناس من القراءات النقديّة الجديدة.

ملحق بأهمّ المكتبات الحاوية للمخطوطات الإباضية

بوادي ميزاب وجبل نفوسة وليبيا

أهمّ المكتبات الخاصّة بوادي مزاب

غرداية: مكتبة عمّي سعيد (عمومية)

مكتبةمحمّد بن أيّوب الحاج سعيد(عائليّة)

مكتبة أبو إسحاق اطفيّش (خاصّة)

قرية بني يزجن: مكتبة القطب (خاصة)

مكتبة حاج صالح لعلي (عائليّة)

مكتبة بن دريسو (عائليّة)

مكتبة آل يدّر (عائليّة)

قرية مليكة: مكتبة با عمارة (عائليّة)

قرية العطف: مكتبة إروان (تابعة للمسجد)

قرية بنّورة: مكتبة السّلف (تابعة للمسجد)

مكتبة الثّبات (تابعة للمسجد)

أهمّ المكتبات بجبل نفوسة

مكتبات جبل نفوسة ومعظمها في إطار الملكية الخاصة للأفراد والعائلات

-جناون/جادو ــــــ مكتبة أحمد القلال

-جادو مكتبة عمرو عبد الرحمان ماليو.

-طرابلس/كباو ــــــ د.صلاح سعيد الباروني تحصل على رخصة إنشاء مكتبة وهو في صدد إنشاء مكتبة لتراث عائلة البارونيين.

-جادو ــــــ مكتبة عائلة عيسى أحمد المقصي من عائلة العز

-جادو ــــــــــــــ مكتبة عمرو المقصي عن طريق ابنه أفلح.

-الرحيبات مرساون ــــــمكتبة علي ميلود

-جادو/مزغورة ـمكتبة بيد د.احمد عمرو الفساطوي .

-كباو ــــــــــــــــــــمكتبة الشيخ عمرو بن مسعود الكباوي بيد ابنه أيوب الكباوي ـــــ

-جادو ـــــــــمكتبة الباحث عمرو سعيد بغني تحت 12يفرن ـــــــــــــمكتبة محمد خليفة مادي

يفرن ـــــــــــــــمكتبة يونس قضقاض ـ

-جناون/جادو ـــــــــــــمكتبة الشيخ سعيد أيوب ـ

-جناون/جادو ـــــــــمكتبة أيوب بن أمحمد في جناون.

-جادو ـــــــــــمكتبة عمر بن مليو من جادو منطقة مزو.

-جناون/جادو ـــــــــالأستاذ سعيد العزابي شاعر من جناون ملم بما هو موجود من المخطوطات.

-يفرن ــــــــــــــ مكتبة الباقور بني منيع قرب يفرن.

-يفرن_مكتبة عائلة الشيخ العارف مانه من يفرن بواسطة السيدة سالمة عمرو بغني.

-مرساون ـــــــــــــــــمكتبة المرساوني

-جناون ـــــــــــــــــ في منطقة جناون بحوزتها مجموعة مخطوطات حاول الشيخ علي يحي معمر الدخول إليها ولكن لم يفلح.

أهمّ المكتبات بجربة

مكتبة الباروني بقرية الحشّان (خاصة) .

مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بقرية غيزن (عائلية)

مكتبة أل البعطور بقرية والغ (عائلية)

مكتبة الشيخ فرحات الجعبيري بتونس العاصمة (عائلية)

وتوجد العديد من العائلات الأخرى المالكة للمخطوطات وراثة.